

المكون غير اللفوي ودوره في إنتاج الخطاب
عند ابن جني في كتابه «الخصائص»

Non-verbal component and its role in discourse production
By Ibn Jinni's book (Alkhasayis)

د. أيمن محمود محمد إبراهيم، جامعة الملك خالد، السعودية.

تاريخ الإرسال: 2018/05/25 تاريخ القبول: 2018/11/19 تاريخ النشر: 2018/12/10

ملخص

يبرز هذا البحث أثر المكون غير اللفوي (اللغة غير المنطوقة) في إنتاج الخطاب عند ابن جني في كتاب (الخصائص)، وبيان مدى إسهام لغة غير منطوقة في إنتاج لغة منطوقة، وقد تمثلت تلك المكونات في مبحثين:

الأول: الخلفية الثقافية للمشاركين في الخطاب.

الثاني: سياق الموقف والحركة الجسمية.

الكلمات المفاتيح: المكون غير اللفوي -الخطاب -ابن جني -الخصائص -سياق الموقف -الحركة الجسمية.

Abstract

This research highlights the effect of the non-verbal component in the production of Ibn Jinni's discourse in the book «Alkhasayis» and the extent to which unspoken language contributes to the production of spoken language.

The first: is the cultural background of the participants in the discourse.

The Second: the context of position and the physical signals.

Key words: non-verbal component, discourse, Ibn Jinni, Alkhasayis, context of position, physical signal.

تقديم:

الخطاب بوصفه نشاطا لغويا منطوقا (كلاما)، تؤثر في إنتاجه عوامل لغوية، وهذه لا شأن للبحث بها، وأخرى غير لغوية، وهي ما تسمي: المكونات غير اللغوية، وهذه المكونات هي مناط هذا البحث. فالكلام عند دي سوسير وجه من أوجه النشاط الإنساني، أما اللغة فهي وعاء هذا النشاط وأداته؛ فاللغة هي أنظمة من الرموز التي يستدعيها حدوث الكلام الفعلي، ويشارك في هذه العملية كل من المتكلم والمخاطب، ويشارك فيها الأول بوصفه بادئا، والثاني بوصفه مستقبلا. أما الكلام- أي القيام بعملية التكلم- فيستدعي صور الكلمات والرموز الأخرى التي انطبعت في أذهان كل المتكلمين، ثم يتم ترجمتها إلى أصوات فعلية واضحة ذات معنى.⁽¹⁾

ويُقصد بالمكونات غير اللغوية: تلك اللغة غير المنطوقة، والتي تؤثر بشكل كبير ومباشر في إنتاج الخطاب (اللغة المنطوقة) الموجه من المتكلم إلى المخاطب، كما أنها تؤثر أيضا بشكل كبير ومباشر في فهم دلالاته، وتمثل المكونات غير اللغوية في فكر ابن جني من خلال كتابه (الخصائص) في الخلفية الثقافية للمشاركين في الخطاب، وسياق الموقف، والحركات الجسمانية. وقد أولى ابن جني هذه المكونات عناية فائقة في كتابه (الخصائص)، وقد أثرت هذه المكونات لديه في إنتاج الخطاب، وفهم دلالاته، بحيث يمكن القول: إن ابن جني يعد رائدا من رواد العربية في استخدام هذه المكونات.

ويهدف هذا البحث إلى بيان أثر تلك المكونات- بالرغم من أنها عناصر غير لغوية- في إنتاج الخطاب- وهو منتج لغوي- عند ابن جني من خلال كتابه (الخصائص)، كما يهدف إلى إبراز جهود عالم من علماء العربية الكبار هو ابن جني في التأصيل لنظرية لسانية حديثة هي (تداولية الخطاب)، وأن علماءنا العرب القدامى- ومنهم ابن جني- قد أسهموا إسهامات جليلة في تلك النظريات، فقد فطنوا إلى دراسة اللغة في ضوء سياقاتها الاجتماعية والثقافية، وأنها ليست بمعزل عن تلك السياقات، مراعين ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات. كما فطنوا إلى ضرورة تكامل العناصر المكونة للخطاب؛ لتحقيق التواصل اللغوي الناجح، من متكلم ومخاطب ومنطوق وخلفية ثقافية وموقف وحركات جسمانية، وهو ما يلتقي فيه ابن جني مع التداوليين المعاصرين في أن التداولية ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي، يكتفي بمجرد وصف البنى اللغوية وتفسيرها، ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، بل هي علم للتواصل يختص بدراسة اللغة في مجال استعمالها.⁽²⁾ واستعمال اللغة عند التداوليين ليس مجرد إنجاز فعل مخصوص

فقط، بل هي جزء كامل من التفاعل الاجتماعي.⁽³⁾

ويأتي هذا البحث مكونا من مبحثين رئيسيين، وذلك على نحو ما هو وارد فيما يأتي:

المبحث الأول: الظفية الثقافية للمشاركين في الخطاب:

تعد الخلفية الثقافية إحدى الافتراضات السابقة على إنتاج الخطاب، إذ يوجه المتكلم كلامه إلى مخاطبه على أساس مما يفترض سلفا أنه معلوم لديه⁽⁴⁾، فهي معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهما؛ فهي تمثل المعرفة المشتركة، أو القاعدة التي ينطلق منها المشاركون في الخطاب. ففي كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم، حيث تشكل تلك الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل، بحيث تصبح تلك الخلفية الثقافية التواصلية مقدمة منطقية لإنتاج الخطاب⁽⁵⁾، فإذا قال شخص لآخر: أغلق النافذة. أو: لا تغلق النافذة. فالمفترض سلفا أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مسوغا يتطلب إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وأن المتكلم في منزلة الأمر⁽⁶⁾، وبذلك يتحقق نجاح عملية التواصل اللغوي بينهما استنادا إلى تلك الخلفية الثقافية التي انطلقا منها، فهي معروفة لديهما، ومتعارف عليها بينهما، بالرغم من عدم التصريح بها، وقد أشار مالينوفسكي إلى أن أي نوع من التفاعل اللغوي أو التبادل الحوارى لا يمثله فقط مجموع الرؤى أو الأصوات المحيطة بالحدث، ولكن أيضا كل التاريخ الثقافي الكامن في عقول المشاركين في الخطاب.⁽⁷⁾

وقد تمثلت الخلفية الثقافية عند ابن جني في كتابه (الخصائص) فيما يسمى ب(كثرة الاستعمال)، و(العرف والعادة)، إذ يتأثر الخطاب (التركيب المنطوق) في إنتاجه أو في بنيته التركيبية اعتمادا على مسألة كثرة الاستعمال، أو العرف والعادة، وكلا الأمرين متفق عليه، ومعروف سلفا لدى كل من المتكلم والمخاطب. وتعد مسألة (كثرة الاستعمال أو العرف والعادة) من المكونات غير اللغوية التي تؤثر في إنتاج الخطاب، حيث ينطلق المشاركون في الخطاب من تلك الخلفية الثقافية المعروفة لديهم، والمتفق عليها فيما بينهم.

وبالرغم من أن كثرة الاستعمال والعرف والعادة في أصلهما مكونان كلاميان، فإنهما لحظة إنتاج الخطاب ليستا مكونين كلاميين؛ لأنهما ليستا من بنية الخطاب المنطوق.

وقد عني ابن جني في كتابه (الخصائص) عناية فائقة بتلك الخلفية الثقافية

للمشاركين في الخطاب، حيث أسهمت لديه في إنتاج الخطاب، وفهم دلالاته، وذلك على نحو ما هو وارد فيما يأتي:

أولاً: كثرة الاستعمال:

حيث يجعل ابن جني من كثرة الاستعمال موجهاً أصيلاً في أن يجعل الخطاب المنطوق على سبيل المجاز مساوياً للخطاب المنطوق على سبيل الحقيقة، فيصير المجاز أصلاً كما أن الحقيقة أصل، كما يجعل من كثرة الاستعمال أصلاً في تحديد البنية التركيبية للخطاب، ويضرب ابن جني في هذا الشأن المثال تلو المثال، فامتلك إذا وجه منطوقه لمخاطبه في نحو قوله «أنت الأسد وكفك البحر»⁽⁸⁾، فإن ابن جني يرى أن هذا الخطاب مجازي المعنى لفظي الحقيقة، وقد تأثر هذا الخطاب في بنيته بحذف أداة التشبيه؛ لأن المتكلم يريد: أنت كالأسد وكفك مثل البحر⁽⁹⁾، ولكن هذا الخطاب المجازي المعنى قد تحول إلى معنى حقيقي بفعل كثرة استعماله وشيوعه على ألسنة المتكلمين، وإدراك المخاطبين لهذا الشيوع، بحيث صار الفرع متمكناً تمكن الأصل، فيشير ابن جني إلى أن «سبب تمكن هذه الفروع عندي أنها في حال استعمالها على فرعيتها تأتي مأثى الأصل الحقيقي لا الفرع التشبيهي»⁽¹⁰⁾، ويسوق ابن جني بيتين من الشعر مدلاً على ما ذهب إليه، فيقول «وعليه جاء قوله:

ليلى قضيبٌ تحتَه كَثِيبٌ

وإنما يريد: نصف ليلي الأعلى كالقضيب، وتحتَه ردف مثل الكثيب. وقول طرفة:

جازت القومَ إلى أرحُلنا ❖ آخر الليلِ بِيَعْفُورٍ خَدِرٍ

أي بشخص أو بإنسان مثل اليعفور، وهو واسع كثير. فلما كثر استعمالهم إيّاه - وهو مجاز - استعمال الحقيقة واستمرّ واتّأبّ، تجاوزوا به ذلك إلى أن أصاروه كأنه هو الأصل والحقيقة.⁽¹¹⁾ حيث يشير ابن جني إلى أن بنية الخطاب قد تأثرت بحذف أداتي التشبيه (الكاف، ومثل) اعتماداً على كثرة الاستعمال الوارد في مثل هذه التراكيب، بحذف أداتي التشبيه، حتى صارت هذه التراكيب بهذا الحذف أصلاً وحقيقة لا فرعاً ومجازاً.

كذلك يرى ابن جني أن تقديم المفعول به على الفاعل أصبح يمثل ثقافة لغوية لدى المشاركين في الخطاب، وأنه قد كثر وشاع على الألسنة «واطرد من مذاهم كثرة تقدمه على الفاعل، حتى دعا ذلك أبا عليٍّ إلى أن قال: إن تقدّم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه، كما أن تقدّم الفاعل قسم أيضاً قائم برأسه»⁽¹²⁾، ويستشهد ابن

جني بشواهد متعددة من القرآن والشعر، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽¹³⁾، وقول ذي الرمة⁽¹⁴⁾:

أستحدثت الركب من أشياعهم خبراً ❖ أم عاود القلب من أطرابه طرباً
وقول لبّيد⁽¹⁵⁾:

فمَدَّ أفعُ الرِّيانِ عُـرَى رَسْمُهَا ❖ خَلَقاً كَمَا ضَمِنَ الوُحَى سِلَاقُهَا
«ومن أبيات الكتاب:

اعتاد قلبك من سَلَمَى عوائدهُ ❖ وهاج أهواءك المكنونة الطللُ
فقدّم المفعول في المصراعين جميعاً»⁽¹⁶⁾

ثم يعلق ابن جني على تلك الشواهد بقوله «والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعلّم غير مستنكر، فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له، حتى إنه إذا أُجِرَ فموضعه التقديم»⁽¹⁷⁾ ومن ثم تصبح مسألة تقديم المفعول به على الفاعل-من منظور ابن جني- خلفية ثقافية وعرف لغوية، وقاعدة عامة ينطلق منها المتكلم والمخاطب في إنتاج الخطاب.

ويتخذ ابن جني من الخلفية الثقافية المتعارف عليها بين المتكلم والمخاطب بـ(كثرة الاستعمال) موجهاً في تحديد بنية الخطاب، والتوسع في تجاور أحواله وأزمته، وذلك «نحو قولهم: أحسنتُ إليه إذ أطاعني، وأنت لم تحسن إليه في أوّل وقت الطاعة، وإنما أحسنتُ إليه في ثاني ذلك؛ ألا ترى أن الإحسان مسبّب عن الطاعة، وهي كالعلّة له، ولا بدّ من تقدّم وقت السبب على وقت المسبّب، كما لا بدّ من ذلك مع العلة. لكنه لما تقارب الزمانان، وتجاورت الحالان، في الطاعة والإحسان، أو الطاعة واستحقاق الإحسان، صارا كأنهما إنما وقعا في زمان واحد»⁽¹⁸⁾، ويذكر أمثلة أخرى متنوعة لخطابات متعددة، يحتوي كل خطاب منها على فعلين لم يقعا في زمان واحد، بل إن الثاني يتبع الأول منهما في التعقيب الزمني، فيقول «ومثله: لما شكرني زرتّه، ولما استكفاني كفيّته، وزرتّه إذ استزارني، وأثنيته عليه حين أعطاني، وإذا أتيتّه رَحَبَ بي، وكلما استنصرته نصرني (أي كلّ وقت استنصره فيه ينصرني) وإنما ينصرك فيما بعد زمان الاستنصار. ويؤكد عندك حال إتياع الثاني للأوّل، وأنه ليس معه في وقته، دخول الفاء في هذا النحو من الكلام، كقولك: إذا سألتّه فإِنَّه يُعطيني، وإذا لقيته فإنه يَبْشُ بي. فدخول الفاء هنا أوّل دليل على التعقيب، وأن الفعلين لم يقعا معاً في زمان واحد»⁽¹⁹⁾، ثم يشير ابن جني إلى أنه لما كثر هذا في الكلام، وشاع على ألسنة المتكلمين، توسع فيه إلى ما بعد فيه الحال والزمان

بين الفعلين، حيث يقول: «ولمّا اطّرد هذا في كلامهم، وكثر على ألسنتهم وفي استعمالهم، تجاوزوه وأنّسعوا فيه إلى ما تناءت حالاه، وتفاوتت زماناه. وذلك كأن يقول رجل بمصر في رجل آخر بخراسان: لمّا ساءت حاله حسّنتها، ولمّا اختلّت معيشته عمرتها. ولعله أن يكون بين هاتين الحالين السّنة والسنتان.»⁽²⁰⁾

ومن ثم فإن كثرة الاستعمال-وهي خلفية ثقافية يدركها المشاركون في الخطاب- قد أثرت في البنية التركيبية للخطاب، وذلك باستخدام أفعال غير متجاوزة في الأحوال والأزمنة.

- ثانيا: العرف والعادة:

يرى ابن جني حذف حرف الجر من بنية الخطاب اعتمادا على جريان العرف والعادة بحذفه من التركيب، فيقول: «وكذلك قوله:

رَسَمَ دارَوْقَفْتُ فِي طَلَّلَه ❖ كَدْتُ أَقْضِي الْغَدَاةَ مِنْ جَلَّلَه

أي ربّ رسم دار. وكان رُؤبة إذا قيل له: كيف أصبحت؟ يقول: خير عافاك الله- أي بخير- يحذف الباء لدلالة الحال عليها بجرى العادة والعرف بها»⁽²¹⁾، فقد انطلق المتكلم في إنتاج خطابه بحذف حرف الجر من بنية الخطاب استنادا إلى العرف السائد بين مستخدمي اللغة في حذف حرف الجر، ولا شك أن المخاطب على وعي بهذا الحذف من خلال إدراكه لمسألة العرف والعادة التي تبيح حذف حرف الجر في مثل هذه التراكيب.

ومما يبدو فيه أثر العرف والعادة في تحديد بنية الخطاب، ما ذكره ابن جني من إضافة الفاعل إلى ضمير المفعول، بحيث يتقدم المضمّر على مظهره لفظا ومعنى، حيث يشير إلى أنهم «قالوا في قول النابغة:

جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ❖ جَزَاءَ الْكَلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ

إن الهاء عائدة على مذكور متقدّم، كل ذلك لئلا يتقدم ضمير المفعول عليه مضافا إلى الفاعل فيكون مقدّما عليه لفظا ومعنى. وأمّا أنا فأجيز أن تكون الهاء في قوله (جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ...) عائدة على عديّ خلافا على الجماعة»⁽²²⁾، حيث يرى أن الهاء في (ربه) عائدة على عدي من جهة المعنى «ويؤكّد أن الهاء في ربه لعديّ بن حاتم من جهة المعنى عادة العرب في الدعاء، ألا تراك لا تكاد تقول: جَزَى رَبُّ زَيْدٍ عَمْرًا، وإنما يقال: جَزَاكَ رَبُّكَ خَيْرًا أو شَرًّا، وذلك أوفق؛ لأنه إذا كان مجازيه ربّه كان أقدر على جزائه وأملأ به؛ ولذلك جرى العرف بذلك فاعرفه»⁽²³⁾، لقد كان عرف العرب وعاداتهم منطلق ابن جني في إنتاج خطاب يجيز فيه أن يتقدم ضمير الاسم الظاهر عليه.

المبحث الثاني: سياق الموقف والحركة الجسمية:

سياق الموقف «هو وجود مكون لا كلامي مصاحب للمكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية»⁽²⁴⁾، وبعبارة أخرى: هو مجموعة من العناصر غير اللغوية المصاحبة للأداء اللغوي، والتي تؤثر- بشكل كبير- في بنية الخطاب وتحديد دلالاته، وذلك مثل: شخصية كل من المتكلم والمخاطب، والأشياء أو الموضوعات المتصلة بموضوع الكلام، وما يحيط بالكلام من ظُروف وملابس متصلة به، كالبيئة والزمن والأحداث المعاصرة له.⁽²⁵⁾

ويعد ابن جني من أبرز علماء العربية عناية بالموقف، حيث يلعب دورا بارزا في البنية التركيبية للخطاب؛ وذلك لأن «الكلام والسياق عنصران متلازمان يكمل بعضهما بعضا، ولا انفصام بينهما، فقد يبقى التركيب على حاله، أو يزيد، أو ينقص، لكن السياق هو الذي يقتضي هذا الإبقاء أو الامتداد، أو يكمل هذا الحذف»⁽²⁶⁾ كما أدرك أن عزل الخطاب عن سياقه هو موت له، فالكلام مجردا من سياقه تتعدد أوجهه ودلالاته، ولا يتعين واحد منها إلا بتعيين السياق، فالأصل في القول الطبيعي أن تتعدد معانيه إلى أن يثبت خلاف ذلك بالدليل⁽²⁷⁾، فالمواقف هي الأسباب التي تدفع المتكلم والمخاطب إلى إنتاج خطاب ما، وهي التي تحدد طريقة هذا الخطاب، ويكون منطوق المتكلم استجابة لتلك المواقف.⁽²⁸⁾

أما الحركة الجسمية: فاللغة بوصفها نظاما من العلامات- على حد قول دي سوسير- أو ضربا من السلوك- على حد قول بلومفيلد- فإنها ليست الوسيلة الوحيدة التي يستعملها الإنسان في التواصل، بل إن هناك وسائل أخرى تتخذ من جسم الإنسان سلوكا أو علامات للتواصل مع غيره، فيستخدم «أعضاء جسمه بل جسمه كله في التواصل مع الآخرين، إنه يتكلم بجسمه كما يتكلم بلسانه، وتحمل حركاته وإشاراته دلالات مفهومة مثل كلمات اللغة تماما»⁽²⁹⁾، فلولا تلك الإشارات والإيماءات المصاحبة للكلام» وهي موضوع عناية عند السيميائيين التداوليين وعلماء الإناسة، لما وجدنا إلى فهم الملفوظات سبيلا⁽³⁰⁾، فقد يستعاض بالإشارات والإيماءات، أو حركات الجسم كالعين أو الكتف أو اليد في التعبير عن المنطوق، وقد تكون أبلغ من الكلام في كثير من الأحيان.⁽³¹⁾

وقد جاءت هذه الإشارات مصاحبة لسياق الموقف عند ابن جني في كتابه (الخصائص)، لا تنفصم عنه بحال من الأحوال، وقد أسهما معا في إنتاج الخطاب لديه، والتأثير في بنيته التركيبية، وفهم دلالاته، وذلك على نحو ما هو وارد فيما يأتي:

1 - **الإيماءة مع سياق الموقف:** وذلك في قول ابن جني «وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس، فقلت: كلّم هذا هذا، فلم يجبه، لجعلت الفاعل والمفعول أيّهما شئت؛ لأنّ في الحال بياناً لما تعني»⁽³²⁾ فالخطاب هنا تمثّل في المنطوق (كلّم هذا هذا)، وقد كانت الإشارة الجسميّة المتمثّلة في الإيماءة دافعاً لإنتاج هذا الخطاب، أمّا سياق الموقف، فقد تمثّل في أنّ حال الرجل من الفرس معلوم، حيث الخطاب موجه من العاقل إلى من لا يعقل، وقد اعتمد ابن جني على الإيماءة السابقة كدافع لإنتاج الخطاب، كما اعتمد على سياق الموقف لفهمه، وما يمكن أن يعتري الخطاب من تقديم أو تأخير استناداً إلى هذا السياق، فيقول: «وكذلك قولك: ولدت هذه هذه، من حيث كانت حال الأم من البنت معروفة، غير منكورة»⁽³³⁾.

2 - **العين والأذن مع سياق الموقف:** حيث تضافرت حاسة البصر مع حاسة السمع - وهما مكونان لأكلاميان - لإنتاج الخطاب عند ابن جني، كما كان سياق الموقف وسيلة لفهمه، فيسوق قول سيبويه «لعلّ الأوّل وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعني أنّ يكون الأوّل الحاضر شاهد الحال، فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية، والآخر - لبعده عن الحال - لم يعرف السبب للتسمية»⁽³⁴⁾، فقد أولى ابن جني عنايته برؤية العين، ومشاهدة الحال، ومعرفة الموقف، وجعلها سبباً في إنتاج الخطاب، فمن رأى بعينه وعرف الموقف، ليس كمن يحدّ عنه ولم يره، ويستشهد ابن جني في هذا الشأن بحكاية حال، فيقول: «ألا ترى إلى قولهم للإنسان إذا رفع صوته: قد رفع عقيرته، فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت وبين معنى (ع ق ر) لبعد عنك وتعسّفت. وأصله أن رجلاً قطعت إحدى رجله، فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم صرخ بأرفع صوته، فقال الناس: رفع عقيرته»⁽³⁵⁾، فالخطاب المنطوق: قد رفع عقيرته، كان نتاج موقف معين تمثّل في رجل قطعت إحدى رجله، على حين تمثّلت الإشارة الجسميّة في رؤية الرجل وقد قطعت إحدى رجله، وسماعه يصرخ بأعلى صوته.

إن ابن جني في كلامه يشير إلى أنّ الخطاب (قد رفع عقيرته)، لا يفهم حق الفهم إلا من خلال ربطه بالموقف؛ لأنّه بمعزل عن الموقف لا يؤدي دلالة رفع الصوت، بل يفهم منه أنّه رفع رجله المعقورة، فدلالته على رفع الصوت قد فهمت من خلال الموقف الذي قيل فيه، كما كانت العين والأذن دافعاً لإنتاج هذا الخطاب.

ومما يبدو فيه دور العين والأذن مع سياق الموقف في إنتاج الخطاب وفهم دلالته، ما ذكره ابن جني في قوله: «ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة، نحو قولك إذا رأيت قادمًا: خيرٌ مقدّم، أي قدمت خير مقدم، فنابت

الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب، وكذلك قولك للرجل يُهوي بالسيف ليضرب به: عمرًا، وللرامي للهدف إذا أرسل النزع فسمعت صوتا: القرطاس والله، أي اضرب عمرًا، وأصاب القرطاس. فهذا ونحوه لم يُرْفَضْ ناصبه لثقله، بل لأن ما ناب عنه جارٍ عندهم مجراه، ومؤدّ تأديته»⁽³⁶⁾، لقد تأثر الخطاب المنطوق من قبل المتكلم بحذف أحد عناصره اعتمادا على سياق الموقف والحركة الجسمية، فالخطاب: خير مقدم، وعمرًا، قد حذف منهما الفعل: قدمت، واضرب، اعتمادا على سياق الموقف المتمثل في حالة رجل قادم، ورجل مهو بسيفه ليضرب، وتمثلت الإشارة الجسمية في رؤية كليهما بالعين، وكذلك الخطاب: القرطاس، حذف منه الفعل الناصب له استنادا إلى الموقف المتمثل في رام يرسل السهم نحو القرطاس، والتقدير: أصاب القرطاس، وقد جمع ابن جني بين سلوكين حركيين صاحبا الخطاب، هما رؤية العين المتمثلة في مشاهدة رام يسدد السهم نحو القرطاس، والسمع بالأذن المتمثل في سماع صوت السهم في القرطاس. ويؤكد ابن جني على أن سبب حذف الفعل من بنية الخطاب ليست راجعة لثقل، وإنما ناب المكون غير اللغوي (سياق الموقف، والإشارة الجسمية) عن المكون الكلامي (الفعل)، وقام بالوظيفة ذاتها التي يقوم بها الفعل؛ لأنه يجري مجراه، ويؤدي تأديته.

3 - الأذن واليد والوجه مع سياق الموقف: لقد بلغ من اعتداد ابن جني بالموقف والإشارة الجسمية، أنه يشير إلى أن الخطاب بمعزل عنهما لا يمكن فهمه، فيحكي قصة الموقف، معتدا بالإشارة الجسمية كوسيلة لفهم المنطوق، فيقول: «ألا ترى إلى قوله :

تقول وصكت وجهها بيمينها ❖ أبعلي هذا بالرحى المتقاعس

فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس- من غير أن يذكر صكت الوجه- لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرا، لكنه لما حكى الحال، فقال: وصكت وجهها، علّم بذلك قوّة إنكارها، وتعاضم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين»⁽³⁷⁾، فالشاعر يسوق كلامه على لسان زوجته، وكانت قد مرت به في نسوة وهو يطحن بالرحى لضييف نزلوا به، فقالت: أبعلي هذا؟ تعجبا واحتقارا له، فأنشد هذا البيت.⁽³⁸⁾ إن الخطاب الجاري على لسان المرأة: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس، قد ارتبط بموقف لا يمكن فصله عن المنطوق، وهو مرور المرأة بزوجه في نسوة وهو يطحن بالرحى، وقد كان هذا الموقف دافعا لإنتاج هذا الخطاب من قبل المرأة. كذلك أشار ابن جني إلى السلوك الحركي المصاحب للخطاب، وهو صك

المرأة وجهها بيمينها، هذا السلوك الذي جعلنا نفهم دلالة الخطاب، ولو خلا الخطاب منه لعلمنا أنها متعجبة ومنكرة لحال زوجها، ولكن صكها وجهها بيمينها أعلمنا بقوة هذا الإنكار، وتعاضم الصورة لديها «ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: وصكّت وجهها، لم نعرف به حقيقة تعاضم الأمر لها، وليست كل حكاية تُروى لنا، ولا كل خير يُنقل إلينا يُشفع به شرح الأحوال التابعة له، المقتزنة - كانت - به. نعم ولو نُقلت إلينا لم نُفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها.»⁽³⁹⁾

إن ابن جني يشير في النص السابق إلى قاعدة تداولية، حين يفرق بين الاختصار على قناة اتصالية واحدة، كسماع حكاية الحال فقط، والجمع بين قناتي اتصال في آن واحد، كسماع حكاية الحال ومشاهدتها» فسماع حكاية الحال تجعلك عارفاً بالمقصد، ولكن مشاهدتها تجعلك بالمقصد أعرف، ولحقيقته أيين.»⁽⁴⁰⁾

4 - العين وسياق الموقف: حيث يرى ابن جني أن المكون الكلامي لا يكفي وحده لتحقيق التواصل اللغوي الكامل وفهم المنطوق، بل يحتاج المتكلم إلى أمور أخرى مصاحبة لخطابه، منها حضور مخاطبه، ورؤيته له، إذ لا يستوي حضوره وغيابه، أو توجيه الخطاب إليه في الظلمة، فحضوره يجعله على إدراك تام بالموقف، كما أن رؤية الإشارات الجسمانية المصاحبة للكلام تلعب دوراً بارزاً في فهم الخطاب، فيقول: «أولاً تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، ويُنعِم تصويره له في نفسه، استعطفه ليُقبل عليه، فيقول له: يا فلان أين أنت؟ أرني وجهك، أقبل علىَّ أحبّك، أمّا أنت حاضر يا هنا، فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع يحبّه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك، فلو كان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين، مجزئاً عنه، لما تكلف القائل ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه، وعلى ذلك قال:

العينُ تبدى الذي في نفسِ صاحِبها ❖ من العداوة أو ودٍّ إذا كانا

وقال الهذلي:

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيْلِدُ لا تُرَغِ ❖ فقلت وأنكرتُ الوجوه هم هم

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلاً على ما في النفوس، وعلى ذلك قالوا: رب إشارة أبلغ من عبارة، وحكاية الكتاب من هذا الحديث وهي قوله: ألا تا، وبلى فا، وقال لي بعض مشايخنا -رحمه الله- أنا لا أحسب أن أكلّم إنساناً في الظلمة.»⁽⁴¹⁾ إن ابن جني في هذا النص يؤسس لقاعدة تداولية، فهو لا يكتفي بحضور مخاطبه ورؤيته له فقط لتوجيه الخطاب إليه، بل يشترط في مخاطبه استعداده التام

لتلقي الخطاب، وهذا ما يتضح من قوله: فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع يحدّثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك. ويلتقي ابن جني في هذا الشأن مع التداولين المعاصرين في أن المخاطب حاضر دائماً في الموقف الكلامي، فإن لم يكن حاضراً حضوراً عينياً، استحضره المتكلم استحضاراً ذهنياً.⁽⁴²⁾ كما أن توجيه الخطاب لإنسان في الظلمة يستوي وغيابه، فتعايير الوجه، والإشارات الجسمية للمتكلمين «هي في ذاتها لغة ومعان تكميلية دقيقة للعملية التواصلية».⁽⁴³⁾ ويؤكد ابن جني على مسألة حضور الموقف الكلامي، ومشاهدة الأحوال والوجوه وما توحى به من تعبيرات لا تؤديها اللغة المنطوقة، فيقول «فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، ويونس، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعي، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤدّيه الحكايات، ولا تضبطه الروايات».⁽⁴⁴⁾ إن حضور الموقف الكلامي، ومشاهدة ما يرتبط به من أحداث وظروف مشاهدة عينية- في رأي ابن جني- تحقق الفهم الكامل والحقيقي للخطاب، دون أدنى شك في هذا الفهم.

4 - الوجه وسياق الموقف: مما يوحى بأثر الموقف، والإشارة الجسمية المتمثلة في حركات الوجه وتعبيراته- وهما مكونان لا كلاميان- في تغيير بنية المنطوق، ما ذكره ابن جني حين تكون في ذم إنسان ووصفه بما يقبح من الصفات» وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوى وجهك وتقطبه، فيغنى ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو لجراً أو مبخلاً أو نحو ذلك»⁽⁴⁵⁾، لقد اعتمد ابن جني في إنتاج الخطاب: سألناه وكان إنساناً، على الموقف المتمثل في الرغبة في ذم إنسان ووصفه بالضيق، كما اعتمد في حذف الصفة من بنية هذا الخطاب على الإشارة الجسمية المتمثلة في زيّ الوجه وعبوسه، فقد أغنت مشاهدة الوجه وتعبيراته عن ذكر الصفات التي هي مكون كلامي، بل إن تعبيرات الوجه كانت أبلغ في الدلالة من ذكر المنطوق.

خاتمة البحث:

- أدرك ابن جني أهمية المكونات غير اللغوية في إنتاج الخطاب وفهم دلالاته، وأنها تعمل على تحقيق التواصل اللغوي الناجح بشكل قد لا تؤديه المكونات الكلامية في كثير من الأحيان.

- مثلت الخلفية الثقافية عند ابن جني قانوناً أو قاعدة عامة ينطلق منها المشاركون في الخطاب لإنتاجه.

- اتكأ ابن جني على سياق الموقف وما صاحبه من إشارات جسمية- وهما مكونان لأكلاميان- في حذف عنصر من عناصر الخطاب، مؤكداً أن هذا العنصر لم يحذف لثقله، لكن الموقف وما صاحبه من سلوك حركي قد قاما بوظيفته.
- أكد ابن جني على ضرورة حضور المخاطب للموقف الكلامي، ورؤيته واستعداداته لتلقي الخطاب؛ لأن المخاطب هو المقصود بالخطاب، ومن أجله أنشئ، وهذا ما أكد عليه التداوليون المعاصرون بأن المخاطب حاضر دائماً، إما حضوراً عينياً، وإما حضوراً ذهنياً.
- فرق ابن جني بين سماع الموقف ومشاهدته؛ لأن مشاهدة الموقف وما صاحبه من ظروف وأحداث، ومشاهدة إشارات الجسم، تحقق الفهم الكامل والحقيقي للخطاب دون أدنى شك في هذا الفهم.
- أدرك ابن جني ضرورة تكامل العناصر المكونة للخطاب لتحقيق التواصل اللغوي الناجح، من متكلم ومخاطب ومنطوق وخلفية ثقافية وموقف وإشارات جسمية.
- اتخذ ابن جني من المكونات غير اللغوية المتمثلة في الخلفية الثقافية، وسياق الموقف، والإشارات الجسمية- وهي عناصر خارجة عن الخطاب المنطوق- أساساً في التعديد وتحليل التراكيب.
- إن ابن جني بهذا الفهم، قد أسهم إسهامات جليلة في نظرية لسانية حديثة، هي نظرية (تداولية الخطاب).

هوامش البحث:

- (1) انظر: فصول في علم اللغة العام. فيرديناند دي سوسير. ترجمة: أحمد نعيم الكراعين. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية 1985م: 38، 39.
- (2) انظر: التداولية عند العلماء العرب. دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي. د/ مسعود صحراوي، دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى 2005م: 16.
- (3) انظر: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. فان دايك. ترجمة: عبد القادر قنيني. دار أفريقيا الشرق. بيروت 2000م: 227.
- (4) The study Of Language. Yule, G. Cambridge University 1987:100.
- (5) انظر: التداولية عند العلماء العرب: 30، 31.
- (6) انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. د/ محمود أحمد نحلة. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية 2002م: 26، التداولية عند العلماء العرب: 32.
- (7) انظر: علم لغة النص. النظرية والتطبيق. د/ عزة شبل محمد. مكتبة الآداب. القاهرة.

- الطبعة الثانية 1430هـ-2009م: 3.
- (8) الخصائص. لابن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتب المصرية بالقاهرة: 2/177.
- (9) انظر: السابق: 2/177.
- (10) السابق: 2/177.
- (11) السابق: 2/177.
- (12) الخصائص: 1/295.
- (13) سورة فاطر: 28.
- (14) البيت في ديوان ذي الرمة. بشرح أبي نصر الباهلي. ورواية أبي العباس ثعلب. تحقيق: الدكتور/ عبد القدوس أبو صالح. مؤسسة الإيمان. بيروت 1982م-1402هـ: 1/13، الخصائص: 295/1.
- (15) ديوان لبید بن ربیعۃ العامري. تحقيق: الدكتور/ إحسان عباس. وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت 1962م: 297، الخصائص: 1/296.
- (16) الخصائص: 1/296.
- (17) الخصائص: 1/297.
- (18) السابق: 3/222.
- (19) السابق: 3/223.
- (20) الخصائص: 3/223.
- (21) السابق: 1/285.
- (22) السابق: 1/294.
- (23) الخصائص: 1/298.
- (24) السياق في فكر سيبويه وعلاقته بالمكون التركيبي. د/ عرفة عبد المقصود عامر حسن. كتاب المؤتمر الدولي السادس (سيبويه إمام العربية) قسم النحو والصرف والعروض. كلية دار العلوم-جامعة القاهرة 2010م: 79.
- (25) انظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. د/ محمود السعمران. دار المعارف بالقاهرة 1962م: 339 وما بعدها، السياق في فكر سيبويه وعلاقته بالمكون التركيبي: 79.
- (26) السياق في فكر سيبويه وعلاقته بالمكون التركيبي: 80.
- (27) انظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. د/ طه عبد الرحمن. المركز الثقافي العربي. المغرب. الطبعة الأولى 1998م: 45.
- (28) انظر: مقالات في تحليل الخطاب. تقديم: حمادي صمود. منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات. جامعة منوبة. وحدة البحث في تحليل الخطاب 2008م: 32.
- (29) الإشارات الجسمية. دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل. د/ كريم زكي حسام الدين. دار غريب بالقاهرة. الطبعة الثانية 2001م: 27، وانظر: العبارة والإشارة. دراسة في نظرية الاتصال: 155.

- (30) الأفق التداولي. نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية. د/ إدريس مقبول. عالم الكتب الحديث. الأردن. الطبعة الأولى 2011م: 80.
- (31) انظر: المعنى خارج النص. أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب. فاطمة الشيدي. دار نينوي. دمشق 2011م: 41.
- (32) الخصائص: 1/ 35.
- (33) السابق: 1/ 35.
- (34) السابق: 1/ 66.
- (35) السابق: 1/ 66.
- (36) الخصائص: 1/ 264.
- (37) الخصائص: 1/ 245، 246.
- (38) انظر: العبارة والإشارة: 149.
- (39) الخصائص: 1/ 246.
- (40) العبارة والإشارة: 151.
- (41) الخصائص: 1/ 246، 247.
- (42) انظر: استراتيجيات الخطاب. مقارنة لغوية تداولية. عبد الهادي بن ظافر الشهري. دار الكتاب الجديدة المتحدة. الطبعة الأولى 2004م: 48.
- (43) الأفق التداولي: 87.
- (44) الخصائص: 1/ 248.
- (45) السابق: 2/ 371.

